دلالة العدول الصرفي على المدح غير الصريح في التعبير القرآني

أ.د. صالح كاظم عجيل
جامعة بابل/ كلية الآداب

صفا عبد الجبار حسن
جامعة القاسم الخضراء

The indication of morphological declension of non-express praise in the Qur'anic expression

Prof.Dr. Saleh Kazem Ajeel
Email: artcol@uobabylon.edu.iq
University of Babylon/ College of Arts

Safa Abdul Jabbar Hassan
Email: alizaee7@gmali.com
Al-Qasim Green University/ College of Science

ملخص البحث

في اللُّغة العربيَّة أساليب تعبيريَّةٌ يُفصحُ فيها المُتكلِّمُ للتعبير عن مشاعر انفعاليّة خاصَّة به، منها أسلوب المدح، ويُعدّ المدح من أساليب النَّحو المعروفة ومفهوماً واسعاً عرض له العلماء في مؤلَّفاتهم، وتركيب المدح تركيب تأثري يُفصح عن انفعال نفسيّ تجاه موضوع يستحق أنْ يُمْدح، فهو معقود أساسًا بالوظيفة الانفعالية التي يظهرها المتكلم عن شعوره بالرضا ، و عليه فهو ليس عرضة للتصديق والتكذيب مما يجعله داخلًا في دائرة الإنشاء غير الطّلبيّ، إنَّ علماء الصرف العربيّ قد جَمَعَوا إلى حدّ كبيرٍ بين الصيغة والدّلالة، فلم تكن دراستُهُم قائمةً على ضبط بنية الكلمات فحسبُ، بل تعدَّى إلى بيانِ أغراضِ المتكلمينَ عن طريق الربط بين الصيغ الصرفية ودلالاتها المتعددة، وتعدّى الأمر إلى أكثر من ذلك حين درسوا دلالات الصيغة الواحدة وبيان معانيها بوساطة العدول الصرفي الذي يُعدّ باباً من أبواب الاتساع في اللغة العربية، ومن جملة دلالات العدول الصرفي هو دلالة المدح غير الصريح.

ويكشف هذا البحث عن تعدد الدلالات للصيغ الصرفية في المدح غير المصرح به من خلال العدول في الصيغ الصرفية في القرآن الكريم، وتحت عنوان ((دلالة العدول الصرفي على المدح غير الصريح في التعبير القرآني)).

الكلمات المفتاحية: العدول الصرفي، المدح غير الصريح، التعبير القرآني

Abstract

In the Arabic language there are expressive methods in which the speaker expresses his own emotional feelings including the method of praise. Basically by the emotional function that the speaker shows about his feeling of satisfaction and then he is not subject to ratification and denial which makes him fall into the circle of non-demanding construction. This is to clarify the purposes of the speakers by linking the morphological forms and their multiple connotations. And the matter went beyond that when they studied the connotations of the single formula and the clarification of its meanings by means of morphological justification which is one of the chapters of expansion in the Arabic language and among the connotations of morphological justice is the sign of non-explicit praise.

This research reveals the multiplicity of connotations of the morphological formulas in the unauthorized praise through the reversal of the morphological formulas in the Holy Qur'an and under the title ((The significance of the morphological reversal of the non-explicit praise in the Qur'anic expression)).

Key Words: Interpretation grammatical function pragmatic linguistics.

يعدُّ العدولُ الصَّرفيّ نوعًا من أنواع العدول في اللُّغة، بكونه مظهرًا من مظاهر العدول في الحياة الإنسانية بشكل عامّ؛ ذلك أنَّ لكل سْمتٍ عدولًا، لا يتخلفُ عن هذه القاعدة منحى من مناحي الحياة، ولا يشذُّ عنها مسارٌ من مساراتها، سواء أتعلَّقَ الأمر بأحد جوانب الحياة البشرية العامة، كالهيئة واللِّباس، والمأكل والمشرب، والهندسة والعمران، وكلّ ما يتصل اتصالًا مباشرًا بيوميات الإنسان، أم تعلَّق بقاعدة من قواعد العلاقات الإنسانيَّة والاجتماعيَّة في تعامل الإنسان مع غيره، بيعًا وشراءً، مصاهرة وزواجًا، تساكنًا وجوارًا، أو غير ذلك ممَّا يَسِمُ حياة الإنسان بما هو كائن اجتماعي، وليست اللُّغة إلا إحدى الظواهر الاجتماعيَّة[1].

والعدول في اللُّغة يعني الميل عن الشيء أو الطَّريق ((عَدَلَ عن الشيء، يعْدِلُ عَدْلاً وعُدُولاً: حاد، وعن الطريق: جار، وعَدَلَ إليه عُدُلاً: رجع. وماله مَعْدِلٌ ولا مَعْدُلٌ: أي مصروفً، وعَدَلَ عن الطريق: مال))[2]، ((العَدْلُ: خلاف الجَوَر. يقال: عَدَلَ عليه في القضيّة فهو عادِلٌ... وعَدَلَ عن الطريق: جارَ. وانْعَدَلَ عنه))[3]، ومن هذين النَّصين نجد أنَّ معنى (العدول) لغة يدل على الميل، والشِّرك، وخلاف الظلم، وكل هذه المعاني تدلّ على الانتقال، أي ترك الحالة الأصليَّة.

أمَّا العدول (اصطلاحاً) فقد جاء في كتاب التَّعريفات أنَّ العَدْل: ((عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وفي اصطلاح النحويين: خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى ... وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق. العدل الحقيقي: ما إذا نظر إلى الاسم وجد فيه قياسٌ غير منع الصرف، يدل على أنّ أصله شيء آخر، كثلاث ومثلث. العدل التقديري: ما إذا نظر إلى الاسم لم يوجد فيه قياسٌ يدل على أنّ أصله شيء آخر،

غير أنّه وُجد غير منصرف، ولم يكن فيه إلا العلميَّة فقدر فيه العدل حفظًا لقاعدتهم،

(١) يُنظَر: دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم (أطروحة): ١٤.
(٢) لسان العرب: ١١/ ٤٣٠، (عدل).
(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٥/ ١٧٦١، (عدل).

نحو: عمر))[1].

وجاءت مصطلحات كثيرة عن العدول في الأدب العربي، منها الانزياح، و هو: ((ذلك النوع من الاستعمالات غير العادية في ارتباطها بمفهوم العدول عن المستوى المألوف، وكل خروج عنه هو انتهاك وانحراف))[2]، اذن فالعدول هو تغيير يطرأ على الصِّيغ الأصليَّة، وهذا التَّغيير يأتي بثوب جديدٍ، ودلالة جديدة، ويكون العدول في المعجم والصَّرف التي تُعد بنية الكلمة صميمه وبؤرته، ثم البلاغة باعتبار امتداد مساحة المعنى أو انحسارها بين الصِّيغة المعدول إليها والصِّيغة المعدول عنها، ثم التَّداولية بالنظر أنّ العدول كثيراً ما تقتضيه ظروف الخطاب وبيئته أو وضع المُخاطب حيال منشئ الخطاب؛ لأنَّ ((المتكلم بعامة يكيف صيغة خطابه بحسب أصناف الذين يخالط))[3]، وكذلك علم الأصوات والعروض لما بين البنى من اختلافات في الوزن والايقاع.

ولَّما كانت الصِّيغة الصَّرفيَّة الشَّغل الشاغل للعلماء، فقد منهج علماء الصَّرف نهج علماء المعجم نفسه في تقفي دلالات البنى والصِّيغ، فاستقرؤوا الصيغ في النَّصوص ورصدوا دلالاتها ومعانيها، ووضعوا في ذلك المصنفات الكثيرة، وكانت خلاصة عملهم أنْ ضبطوا استعمالات الصِّيغ وحدّدوا لكل منها معنى أو جملة معانٍ، فقالوا: ((إنّ بنية (تفاعل) للاشتراك في الفاعلية لفظًا، وفيها وفي المفعولية معنى ... ولإظهار حصول ما ليس بحاصل، ومطاوعة (فَاعَل) وأنّ (افعلَّ) و(افعالَّ) للألوان وأن (افعَوْعَل) للمبالغة والصيرورة، وموافقة (استفعل) وأنَّ (استفعل) للطلب والتحول والاتخاذ))[4].

وخصَّص ابن جني باباً لمفهوم العدول بعنوان ((باب في قوة اللفظ لقوة المعنى))[5]، ذكر أيضًا الألفاظ الدّالة على العدول على نحو: الانحراف[6]، والعدول، ونقص العادة،

(١) يُنظر: دلالات العدول الصرَّفي في القرآن الكريم (أطروحة): ١٤.
(٢) شعرية الانزياح، دراسة في جمال العدول: ٣.
(٣) الأسلوبية والأسلوب: ٦٣-٦٤.
(٤) نزهة الطرف في علم الصرف: ١١٢-١١٣-١١٤.
(٥) الخصائص: ٣/ ٢٦٨.
(٦) التمام في تفسير أشعار هذيل: ٧٢.

وشجاعة العربيّة، والاتّساع وغيرها[١].

ويستعمل أبو هلال العسكريّ مصطلح العدول في كلامه على الفرق بين صيغتي (رحيم) و(رحمن)، يقول: ((وعندنا أنّ الرّحيم مبالغة لعدوله عن راحم، وأنّ الرحمن أشدُّ مبالغة؛ لأنّه أشدُّ عُدولاً))[٢] عن رحيم، وعلى نحو ذلك قال أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ) إنَّ: ((رحمان عدل عن راحم للمبالغة))[٣].

ووسَّع ضياء الدين ابن الأثير(٦٣٧هـ) القول في الكلام عن العدول، وإنْ كان يسميه تارة بالعدول، وتارة بالنَّقل والانتقال، وذلك في الفصل الذي عقده بعنوان (قوة اللفظ لقوة المعنى)[٤]، والمهم أنّ ابن الأثير أدرك أنَّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلاّ لنوع خصوصية اقتضت ذلك[٥]، ومن هنا جاء إفراده لمبحث خاص بالعدول الصّرفي سمّاه (اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها)، يقول فيه: ((أمَّا اختلاف صيغ الألفاظ فإنّها إذا نُقِلَت من هيئة إلى هيئة؛ كنقلها مثلًا من وزنٍ من الأوزان إلى وزن آخر وإنْ كانت اللفظة واحدة، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من الفعل إلى صيغة الاسم،... انتقل قبحها فصار حسنًا، وحسنها صار قبحًا))[٦]، وسمّاه القرطاجنيّ (٦٨٤هـ) بالانعطاف[٧]، والزركشي (٧٩٤هـ) بالتَّلوين، أو خطاب التَّلوين[٨].

فالعدول الصرفي: هو تبديل صيغة مكان صيغة أخرى لإعطاء اللَّفظة دلالة جديدة، وهناك وجهان لتحقيق العدول في المستوى الصرّفي للغة هما: العدول عن الأصل، والعدول عن القياس، وفي العربية شواهد على فكرة العدول، إذ يمكننا أنْ نتلمس فيها دلالات

(١) ينظر: الخصائص: ١/ ١٥٢-١٥٣ و٣/ ٢٦٧-٢٦٨.
(٢) الفروق اللغوية: ١٩٦.
(٣) إعجاز القرآن: ٢٧٣.
(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢/ ٢٧٩.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه: ١/ ٢٩٣.
(٧) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٠١.
(٨) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢٤٦.

أخرى، وبحثت الدراسة في بعض الصيغ الصرفية التي حدث فيها العدول فحمل في طياته دلالة المدح غير الصَّريح.

أوَّلًا: دلالة العدول من فاعل إلى فعيل:

يُجمع الباحثون على أنّ اللُّغة العربيَّة من أغنى لغات العالم، وأكثرها ألفاظاً وعبارات، وأنّها موحية تتوخى الوضوح، وعلى الرَّغم من أنّ كثيراً من مفرداتها قد ضاع، وأنّ كثيراً من شعرها و نثرها لم يصل إلينا، كما قال أبو عمرو بن العلاء: ((ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير))[1]، إلا أنَّ ما تمتلكه اللُّغة العربيَّة الآن من مفردات يُعدُّ ثروة لا يستهان بها.

وهذا ما جعلها لغةً حيَّةً تتقبل الجديد اللُّغويّ، تستطيع أنْ تُعبِّر عن كلِّ شيء يعترض الانسان في حياته بفضل ما تمتاز به من خصائص كالاشتقاق والنَّحت والمجاز وغيرها، ومن مظاهر المرونة في قواعد اللُّغة الصَّرفية ظاهرة التَّناوب اللُّغوي بين المشتقات الدَّالة على الفاعليَّة والمفعوليَّة والمصدر. والمقصود بالتَّناوب هو مرادف للفظة العدول بين الصِّيغ الصَّرفية في مبناها ومعناها.

ومن هذا المنطلق وردت ظاهرة التَّناوب في النّصوص اللّغويَّة التي دلَّت على مرونة واتساع وقدرة على التَّنوع في قواعد اللُّغة كثيرًا في اللُّغة العربيَّة، وهذه اللُّغة تعتني بالمعاني عنايةً كبرى على الرّغم من عنايتهم بالألفاظ كثيرًا. ولا سيَّما أنّ اللَّغويين العرب قد عدّوا المعنى ملحظًا ضروريًا في استكمال التَّحليل وعمل المُعْرِب[2].

وورد بناء (فَعِيْل) في العربيَّة كثيراً وخاصةً في القرآن الكريم ، فورد بكثرة مفيدة على دلالة (اسم الفاعل) مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[3]، إذ أفادت صيغة (حصير) دلالة اسم الفاعل (حاصرًا)، فيكون المُراد منها المكان الذي يحصر

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ٣٤.
(٢) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٦٨٤،٦٨٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨.

الكافرين، فلا يستطيعون الخروج منه، أي حابسًا مانعًا من الخروج[١].

وجاءت (فَعِيْل) بمعاني صيغ أخرى كالاسم، والمصدر، والصَّفة المشبهة، وصيغة المبالغة، واسم الفاعل، فهي بناءٌ مشتركٌ بين هذه الصّيغ.

وتحدث الصَّرفيون عن دلالة صيغة (فعيل) الدَّالّة على التَّجدّد والتَّغيّر فالفعل يفيد التَّجدد والحدوث، فهو يقتضي تجدُّد المعنى ((الاسم المشتق الذى يشبه الفعل في التجدد والحدوث، شبهًا صريحًا؛ أي: قويًا خالصًا، بحيث يمكن أنْ يحلّ الفعل محلّه، ولم تغلب عليه الاسمية الخالصة. وهذا ينطبق على اسم الفاعل، ومثله صيغُ المبالغة؛ لأنّها باتفاق يفيدان التجدد والحدوث؛ مثل قارئ، فاهم، زَرّاع، مقروء، مفهوم))[٢].

وممَّا يميّز (فَعِيْل) عن غيرها من الصِّيغ، أنَّها تدلّ على الوصف الثَّابت في صاحبه مثل: طويل، ظريف، قريب، فالدلالة في هذه الصفات أنّها كالطبيعة في أصحابها وليست مصطنعة؛ فعندما نقول: كفٌّ خضيب، وطرف كحيل، تجد أنّ (خضيب) و(كحيل) صفتان تدلان على أنّ ذلك شيء طبيعي فيهما خلقة وطبيعة ولم يتخذ لذلك[٣]، وأشار السيوطي إلى ذلك أيضًا بقوله: ((وفعيل لمن صار له كالطبيعة))[٤].

ونلاحظ أنّ صيغة (فعيل) تعني القوة والشّدة في الوصف فضلاً عن المبالغة، فنجد أنّ معنى الحدث فيه أكثر إيقاعًا وأشدّ قوةً، ((وفي المبالغة تدلّ على معاناة الأمر وتكراره حتى أصبح كأنّه طبيعة ثابتة في صاحبه كعليم وخبير))[٥]، وممكن أنْ تكون (فَعِيْل) أخفّ من غيره من الصّيغ، إذ اطَّرد بناؤه من (فَعُلَ) كظريف وشريف وجميل.

ومن أسماء الله الحسنى التي جاءت على وزن فَعِيْل ولكن بمعنى فاعل (الرقيب)، يقول ابن منظور:((الرَّقِيبُ: وَهُوَ الحافظُ الَّذِي لَا يَغيبُ عَنْهُ شيءٌ؛ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ))[٦]، فنجد

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني: ١/ ٢٣٨، والتحرير والتنوير: ١٥/ ٣٩.
(٢) حاشية الصبان: ١/ ٣٣٣، والنحو الوافي: ١/ ٣٨٧.
(٣) ينظر: صيغة فعيل (رسالة): ١٥٥.
(٤) همع الهوامع: ٣/ ٧٥.
(٥) معاني الأبنية في العربية: ١٠٢.
(٦) لسان العرب: ١/ ٤٢٤.

أنّها صفة ثابتة لله (جلّ علاه)، ولا يمكن أنْ تزول عنه سبحانه وتعالى.

وذُكِرَت هذه الكلمة في القرآن الكريم في وصف الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، فقد جاءت على صيغة (فَعِيْل) ولم تأتِ على وزن فاعل (راقب) للدلالة على صفة الثّبوت.

وتختلف معنى هذه الصفة (رقيب) إذا وصفنا بها غير الله تعالى -أي البشر- فتكون صيغة مبالغة وليست صفة التي تعني الحافظ للشيء،((وقيل في تسمِيَته تعالى رقيبًا، أي حَافِظًا، وقيل عليمًا، ومعناهما في حق الله واحد، وإنَّما يختَلف في حق الآدميّ فإن الرَّقيب الحَافِظ للشيء ممَّن يغتفله ولا يَصح هذا في حَقه تَعَالى))[2].

وفي عدول اسم الفاعل إلى فعيل نجد أنّ ما يميز (فَعِيْل) عن (فَاعِل) هو كثرة تبادله في الصّيغ، ويفيد هذا العدول المبالغة في الحدث، وكثيراً ما تأتي المبالغة في فعيل معدولةً عن فاعل أكثر من (فَعِيْل) بمعنى (مَفعُوْل)؛ وذلك لأنَّ الفاعل مقدّم على المفعول، وهذا يعني أنّ الأصل (فَعِيْل) بمعنى (فَاعِل)، وما يميِّز (فَعِيْل) بمعنى (فَاعِل) أنّه يجمع جمع السلامة نحو: رحيمون، ورحيمات، وكريمون، وكريمات، بينما فعيل بمعنى مفعول لم يجمع جمع السلامة[3].

وفَعِيْل بمعنى فَاعِل فيه الصِّفة اللازمة لمعنى التَّكثير[4]، وعلى هذا القول ينقسم إلى قسمين: قسم خالص لا خلاف فيه، وقسم آخر مختلف فيه، فأمّا الذي لا خلاف فيه فلفظة (المجيد) وهي أحدى صفات الله تعالى، وكذلك وصف القرآن الكريم بـ(المجيد)، وجاء في لسان العرب: ((مَجُد مَجادةً، فَهُوَ مَجِيدٌ))[5]، والمجيد (فعيل) صفة للمبالغة، وقيل: هو كريم المفضال[6]، فجاء (فَعِيْل) هنا للمبالغة، لأنّه عدل به عن (الفاعل) فصار (فَعِيْل) أبلغ من

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.
(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار: ١/ ٢٩٨.
(٣) ينظر: المفصّل: ٣/ ٢٩٢.
(٤) ينظر: كتاب الأفعال للسرقسطي: ١/ ٦٢-٦٣.
(٥) لسان العرب: ٣/ ٣٩٥.
(٦) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٢٩٨.

فاعل[١]، قال الله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾[٢].

إنَّ هذا التناوب الحاصل بين الصيغ ما هو إلا مظهر من مظاهر التوسع الدلالي للصيغة الصرفية، ومن ضمن هذا التوسع هو مجيء فعيل بمعنى فاعل اكتسى بدلالة جديدة هي المدح، لكنه بغير صيغته القياسيَّة، إذ قال الطَّبريّ في قوله جل ثناؤه: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٣]:((الرحيم) فعيل منه... وقيل (رحيم)، وإنْ كانت عَين (فعِل) منها مكسورة، لأنّه مدح، ومن شأن العرب أنْ يحملوا أبنية الأسماء -إذا كان فيها مدح أو ذمّ- على (فعيل)، وإنْ كانت عين (فعل) منها مكسورةً أو مفتوحةً، كما قالوا من (علم) عالم وعليم، ومن (قدَر) قادر وقدير. وليس ذلك منها بناء على أفعالها، لأنّ البناء من (فَعِل يفْعَل) و(فعَل يفعِل) فاعلٌ. فلو كان (الرحمن والرحيم) خارجين عن بناء أفعالها لكانت صورتهما الراحم))[٤].

فظاهرة تبادل الصيغ في الدّلالة تعطينا معنى جديداً هو دلالة المدح غير الصَّريح.

ثانيًا: دلالة العدول من مفعول الى فاعل:

ظاهرة العدول في القرآن الكريم ظاهرة تستحق الوقوف عليها طويلاً ودراستها ملياً، فإنّ المتتبع للمقاصد القرآنية للألفاظ المخصوصة يجد عَجَباً، فالتَّناوب فاشٍ إلى درجة يُخيل إليك فيها أنَّ المعنى الصَّرفيّ الظاهر للفظ ليس مقصوداً بذاته، إنّما أُريد به معنى آخر، وهذا من تمام إعجاز القرآن.

عقد ابن فارس فصلاً سماه (باب المفعول يأتي بمعنى الفاعل)، جاء فيه ((تقول: سرّ كاتم، أي مكتوم. وفي كتاب الله جل ثناؤه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[٥]، أي

(١) ينظر: لسان العرب: ٣/ ٣٩٥.
(٢) سورة البروج، الآية: ١٥.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ١.
(٤) جامع البيان: ١/ ١٢٦.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٣.

لا معصوم و﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[١] و﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[٢] أي مرضي بها، و﴿نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾[٣]، أي مأمونا فيه ويقول الشاعر[٤]:

إنّ البغيضَ لَـنْ يمل حديثه فانقع فـؤادَك مـنْ حديثِ الوامقِ

أي: الموموق))[٥].

وسمّى الثعالبيّ أيضًا فصله بتسمية ابن فارس (المفعول يأتي بلفظ الفاعل)[٦]، وزاد الحلوانيّ على ذلك فقال: ((ويقال طريق سالك، أي مسلوك وتراب سافِ، أي مسفي، وسِرٌ كاتم، أي مكتوم، وميت ناشر، أي منشور))[٧].

ولا يمكن أن نكتفي بالإشارة فقط إلى اسم الفاعل الذي ينوب عن غيره من الصيغ، وإنّما ندعم ذلك بأدلة من القرآن الكريم ومن أقوال العرب.

وللفرّاء تفسير واضح لدلالة اسم الفاعل لمعنى المفعول، وذلك نحو: ليلٌ نائم وسرٌ كاتم وماءٌ دافق، فيجعلونه فاعلاً وهو مفعول في الأصل، وأرجع الفرّاء ذلك إلى علتين:

الأولى هي النُّكتة البلاغيَّة، يقول في ذلك: ((إنّهم يريدون وجه المدح أَوِ الذمّ، فيقولون ذَلِكَ لا عَلَى بناء الفعل، ولو كَانَ فعلًا مصرحًا لم يُقَلْ ذَلِكَ فِيهِ، لأَنَّه لا يجوز أنْ تَقُولُ للضارب: مضروب، ولا للمضروب : ضارب؛ لأَنَّه لا مدح فِيهِ ولا ذمّ))[٨].

أمّا العلَّة الثَّانية فهي اختلاف اللُّغات بين القبائل، يقول فيها: ((وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[٩]، أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم، أنْ يجعلوا المفعول فاعلاً إِذَا كَانَ فِي

(١) سورة الطارق، الآية: ٦.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٧.
(٤) ديوان جرير: ٣١٤.
(٥) فقه اللغة / الصاحبي: ١/ ١٦٨.
(٦) المصدرنفسة / ١/ ٣٦٦.
(٧) المغني الجديد في علم الصرف:٢٦٦.
(٨) معاني القرآن: ٣/ ١٨٢.
(٩) سورة الطارق، الآية: ٦.

مذهب نعت، كقول العرب: هَذَا سرٌّ كاتم، وهمٌّ ناصبٌ، وَلَيْلٌ نائمٌ، وعيشةٌ راضيةٌ))[١].

فإنْ كان أهل الحجاز يجعلون المفعول فاعلاً، وباقي العرب يبقون المفعول على حاله، فقد يكون ((لكل صيغة من الصيغ الأخرى اختصاص في الدلالة لدى بعض القبائل، ثم أخذت هذه القبيلة عن تلك، وتلك عن هذه، فكان العربي يتحدث ويقول الشعر بلسان قومه، فإذا أراد لفت الانتباه إلى المدح أو ذمّ أو لبراعة في التعبير قرع الأسماع بما لم تألفه من قبل، فظهرت بذلك بذرة التَّضاد في الصيغ الصرفية، ثم شاع استخدامها بين القبائل حتى اختلط الأمر على جُمّاع اللغة من بعد))[٢].

وممّا يؤكد أنّ صيغة (فَاعِل) عند أهل الحجاز قد تأتي بمعنى (مَفْعُول) وأنّ الصيغتين اختلطتا على ألسنة الشّعراء في ضروب الشّعر المختلفة من مديح وهجاء قال الشاعر:

دعِ المكـارمَ لا تَـرْحَـل لِبُغْيتها ... واقعدْ فإنّك أنت الطاعِمُ الكَاسِي

أي المكسوّ. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[٣]، فهذه الصّيغة (راضية) حملت دلالتين مزدوجتين في آن واحد، اسم الفاعل على أساس إبقاء الصيغة على بابها، واسم المفعول على أساس العدول الحاصل بين الصّيغتين؛ ولذلك يمكن تصنيفها ضمن الصّيغ التي تتعدد احتمالاتها الدَّلالية، وهو المفهوم الاساسي للتوسع الدلالي للصيغ الصرفية، يقول الدّكتور فاضل السَّامرائيّ: ((فإذا أردت أكثر من معنى في تعبير واحد كان من باب الاتساع في المعنى))[٤].

ويسهم السِّياق إسهامًا كبيرًا في إحداث العدول بين الصِّيغ، إذ ترد الصِّيغة في شكلها الخارجيّ مفيدةً دلالة ما، وهي دلالة المدح غير الصَّريح وقد ذكرنا نصّ الفرّاء سابقًا موضحًا لنا ذلك.

(١) معاني القرآن: ٣/ ٢٥٥.
(٢) التضاد في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق: ٢١٩.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٢١.
(٤) الجملة العربية والمعنى: ١٧٠.

ثالثًا: دلالة العدول من مفعول إلى مُفْعَل:

يعد اسم المفعول من أكثر المشتقات أهمية بعد اسم الفاعل، لما فيه من مزية عند العرب فهو يخدم بنية الكلمة، ولما له من أهمية بالغة عند علماء النحو فهو يُعدُّ من بين المشتقات العاملة والمساهمة في تحديد معمول الكلمة.

يُصاغ اسم المفعول من الثلاثي المبني للمجهول على ((وزن مفعول كـ وُرِد فهو مورود، وضُرب فهو مضروب، ومُرّ فهو ممرور به، فإنْ كان الفعل أجوف، نحو: قال، وباع التقى في اسم المفعول حرفا علة، فتحذف أحدهما، نحو مقُول ومبيع، والأصول مقوول ومبيوع))[1].

والمُلاحظ أنَّ العدول عن اسم المفعول (مسموع) للفعل الثلاثي (سَمِع) إلى اسم المفعول (مُسْمَع) للفعل الرباعي (أسمع) في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾[2]، فالعدول حاصل في مجيء (مُسْمَع) وهو اسم مفعول من (أَسْمَع)، إذ القياس أَنْ يكون (مسموع) من الثلاثي الذي ورد بصيغة فعل الأمر (اسمع) في الآية ، وإنّما نهي اليهود عن استعمالهم هذه الصّيغة؛ لأنها تحتمل المدح وتحتمل الذمّ، واحتمال المدح فيها متأتٍ من قولهم: أَسْمَعَ فلانٌ فلاناً إذا سَبَّهُ، فقولهم وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، أي: غير مُسْمَع مكروهاً[3].

وفسّر الزّمخشريّ والرّازيّ هذه الصيغة (مُسْمَع) بأنَّها تدلُ تارَّة على المدح وأخرى على الذمّ حسب مقصد المُتكلِّم ، وتابعهم على ذلك أبو الحسن الخازن وأبو حيَّان الأندلسيّ والصّعيدي والايباريّ[4]، يقول أبو الحسن الخازن: ((وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ هذه كلمة تحتمل

(١) شرح القصيدة الكافية في التصريف: ٥١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري: ١/ ٥١٧، والتفسير الكبير: ١٠/ ٩٣.
(٤) ينظر: لباب التأويل: ١/ ٣٨٦، والبحر المحيط: ٣/ ٦٦٢، وبغية الإيضاح: ٦٢٨، والموسوعة القرآنية: ٩/ ٣١٠.

المدح والذمّ، فأمّا معناها في المدح اسمع غير مسمع مكروها))[1].

ووضح ذلك أبو حيان أيضاً بقوله: ((وَيُحْتَمَلُ الْمَدْحُ أَيِ: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا مِنْ قَوْلِكَ: أَسْمَعَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا سَبَّهُ))[2].

ولكن العدول من (مسموع) إلى (مُسْمَع) مع أنّه القياس، فيه معنى الإلباس الذي يريد أنْ يُوضّحه النص القرآني محاكاة لحال اليهود في إرادتهم الذمّ والشرّ، ولكن بلباس يظهر أوّل ولهة وأنّ به معنى المدح والخير، ذكر البيضاوي أنّه وُضِع ((غَيْرَ مُسْمَعٍ) موضع لا أُسمعْتَ مكروهاً أو فتلاً بها وضماً ما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السبّ والتحقير نفاقاً وَطَعْناً في الدّينِ، وطعناً بالدين واستهزاء به وسخرية))[3].

ففي هذا العدول نجد أنّ ظاهرة العدول من مسموع الى مُسْمَع قد أعطت دلالة جديدة هي دلالة المدح غير الصَّريح.

وأخيراً فإنّ هذا البحث انطلق من افتراضاتٍ مسبقةٍ دارت مُجْمَلُها حول إمكانية وجود المدح في غير مواضعه الصَّريحة، فَسَعَى إلى التَّفَحُّص واستجلاء مفهوم المدح غير الصَّريح في دلالات الصيغ الصرفية، إذ لم يفرد النَّحاة بابًا خاصًّا للأساليب غير الصريحة ومنها المدح، وأنّهم على الرّغم من عدم اتفاقهم على دلالة المدح غير الصّريح في الصّيغ الصّرفيّة إلا انَّه لا يعني إلغاء هذه الفكرة، والدَّليل على ذلك لا يوجد عالمٌ قد اعترض على توجيه غيره لدلالة المدح غير الصَّريح في هذه الصّيغ. وقد أظهر البحث أنَّ هناك بعض الصّيغ الصّرفيَّة تحمل دلالات غير الدَّلالة التي وُضعت لها، بسبب سعة العربيَّة وعبقريتها على استيعاب أكبر قدر ممكن من الدلالات يحكمها السّياق، ومن هذه الدّلالات هي دلالة المدح.

(١) لباب التأويل: ١/ ٣٨٦.
(٢) البحر المحيط: ٣/ ٦٦٢.
(٣) أنوار التنزيل: ٢/ ٧٧.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الأسلوبية والأسلوب، الدكتور عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط٣، (د. ت).

٣. إعجاز القرآن، محمد بن الطيب أبو بكر البلاقلاني (٤٠٣هـ)، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٩٧م.

٤. أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل، عبد الله بن عمر بن مُحمّد أبو سعيد الشيرازيّ البيضاويّ (٦٨٥هـ)، تح: مُحمّد عبد الرحمن المرعشليّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ.

٥. البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٦. البرهان في علوم القرآن، بدر الدِّين مُحمّد بن عبد الله الزّركشيّ (٧٩٤هـ)، تح: مُحمّد أبي الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٧. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب، ط١٧، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨. التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الشيخ مُحمّد الطاهر بن عاشور (١٣٢١هـ)، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٩. التضاد في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠. التّفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، مُحمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ أبو عبد الله الملقب بفخر الدين الرازيّ خطيب الرَّي (٦٠٦هـ)، إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١١. التمام في تفسير أشعار هذيل (مما أغفله أبو سعيد السكري)، عثمان بن جني أبو الفتح (٣٩٢هـ)، تح: أحمد ناجي القيسي وخديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، العراق، ط١، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

١٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مُحمّد بن جرير أبو جعفر الطَّبريّ (٣١٠هـ)، تح: أحمد مُحمّد شاكر، مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٣. الجملة العربية والمعنى، الدكتور فاضل السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م

١٤. حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، محمد بن علي أبو العرفان الصبّان الشافعي (١٢٠٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٥. الخصائص، عثمان بن جني أبو الفتح، تح: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٦. دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم،عبد الناصر مشري،(أطروحة دكتوراه) جامعة الحاج لخضر، باتنه، كلية الآداب واللغات، الجمهورية الجزائرية،٢٠١٤م.

١٧. ديوان جرير (شرح مُحمّد بن حبيب)، تح: د. نعمان مُحمّد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٩٨٦م.

١٨. شرح القصيدة الكافية في التصريف، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تح: د. ناصر حسين علي، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

١٩. شعرية الانزياح في جمال العدول، خيرة حمرة العين، دروب ثقافية، الجزائر، ٢٠١١م

٢٠. الصّاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس الرازيّ (٣٩٥هـ)، تح: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، القاهرة.

٢١. الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ (٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢٢. صيغة فعيل دراسة نحوية صرفية دلالية، مرزوق عطيوي مرزوق، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢٣. الفروق اللغوية، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري (نحو٣٩٥هـ)، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر، القاهرة، مصر، (د. ت).

٢٤. كتاب الأفعال، سعيد بن محمد أبو عثمان السرقسطي (٤٠٠هـ)، تح: د. حسين محمد محمد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٢٥. الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزَّمخشريّ (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٦. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم أبو الحسن المعروف بالخازن (٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٧. لسان العرب محمد بن مكرم أبو الفضل المعروف بابن منظور (٧١١هـ) تح: عبد الله علي الكبير وآخرين دار المعارف القاهرة.

٢٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد بن محمد أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (٦٣٧هـ)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

٢٩. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون السبتي (٥٤٤هـ)، المكتبة العتيقة-تونس، ودار التراث-مصر، ١٩٧٨م.

٣٠. معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل السامرائي، دار عمّار، عمان، الأردن، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣١. معاني القرآن، يحيى بن زياد أبو زكريا الفرَّاء (٢٠٧هـ)، تح: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي وعبد الفتَّاح إسماعيل شلبي ، دار السرور، (د . ت).

٣٢. المغني الجديد في علم الصرف، الدكتور محمد خير حلواني، دار الشرق العربي، بيروت-لبنان، حلب-سوريا، (د. ت).

٣٣. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف بن أحمد جمال الدين ابن هشام (٧٦١هـ)، تح: د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م.

٣٤. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ)، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم- دمشق والدار الشامية- بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٥. المفصّل في علم العربية، محمود بن عمر الزمخشري، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح قدارة، دار عمّار، عمّان، الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٣٦. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم أبو الحسن القرطاجني (٦٨٤هـ)، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٦م.

٣٧. الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (١٤١٤هـ)، مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٣٨. النّحو الوافي، عباس حسن (١٣٩٨هـ)، دار المعارف، مصر، ط ١٥، (د . ت).

٣٩. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن مُحمّد بن أبي سعيد أبو البركات الأنباريّ، تح: د. إبراهيم السامرائيّ، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط ٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٤٠. نزهة الطرف في علم الصرف، أحمد بن محمد أبو الفضل الميداني، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط١، ١٢٩٨هـ.

٤١. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد بن محمد الجزري مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تح: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٤٢. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطيّ، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيّة، مصر، (د . ت).

والله يعلم وأنتم لا تعلمون